عظيم في كتابي الأخبار في تحمله للاحتمالات البعيدة والتوجيهات الغير السديدة ، ويظهر ان صاحب الذريعة امضاه على هذا الرأي في حق الشيخ .

والحق ان الشيخ اول باعث نقد الأحاديث وحاول الجمع بين مختلفاتها ومتعارضاتها لتلك الغاية الكلامية التي اشرنا اليها فلذلك بذل جهداً عظيماً في هذه الناحية لم يسبق اليها سابق وبرع فيها براعة قد لا تتأتى لمثله وهو مجتهد يحق له تعرف له نظيراً ولا يمكن لانسان مجتهد باحث ان يسلم من غفلة او خطأة ولا يمكن لمجتهد آخر ان يقره على كل ما رآه الأول مع طبيعة الاختلاف في البشر قابلية وذكاء وفطنة وفكنا من البحث . وليس ما وقع فيه من بعض الأخطاء شيئاً يذكر في جنب ما في كتابه من دقائق نفيسة وآراء نافسحة وترجيحات مسقيمة وهماسن لا تقدر بقيمة . اما ان يقال عن الشيخ انه وقع له خبط عظيم فذلك لعمي وظلم عظيم ولكنها تلك شنشنة نعرفها من اخزم فان مثل هذا القائل يريد من الناظر في الأحاديث الا يفتح فاه بكلمة يشم منها رائحة الرأي في الحديث او ترجيح بعضها على بعضها او تأويله بل يبقى الناظر مطموس الفهم اعمى الرأي لا يفكر ولا يرجح . فكل ترجيح وتأويل وكل رأي ونظر هو عنده خبط عظيم . ولذا ان هذا القائل بالذات استحسن كتاب التهاية للشيخ اذ اقتصر فيه على مضمون الأخبار فقال عنه : « في كتاب النهاية سلك مسلك الاخباري الصرف » ثم قال « وعلى هذه هي الطريقة المحمودة والغاية المقصودة » . ولكن الشيخ حينما ذكر مضمون بعض الأخبار قد الغى ما يعارضها ويخالفها لترجيح ما ذكره على غيره لوجه من الوجوه التي يذكرها في التهذيب والاستبصار اذ لم يصرح بتلك الوجوه فلا بد انه عمل رأيه وتأويله ، والا فذكر جميع الاخبار مختلفاتها ومتعارضاتها .

وبرايح الملاحظات : ما قاله صاحب الذريعة بعد ان ذكر كلام ذلك القائل بعض مشايخه المعاصرين فانه بعد ان اثنى عليه قال : « وقد غفل عن شيء آخر هو اشد مما ذكره لمن تأمل بحقيقة النظر وهو ما وقع للشيخ المذكور سيما في التهذيب من السهو والغفلة والتحريف والنقصان في متون الأخبار واسانيدها وقلما يخلو خبر من علة من تلك » .

واني شخصياً قد تتبت كثيراً من احاديث التهذيب وطابقتها مع متون أحاديث الكافي فعثرت على جملة من الاختلاف في المتون بكلمة او كلمتين وعلى الأكثر لا تخل بالمعنى والمقصود والذي يبدو للمتتبع ان الشيخ الكليني كان اضبط في نقل متن الحديث وهو اسبق منه فعند تعارض النصين مع اتحاد الرواية مسنداً حيث يبدو اعتمادها متناً يكون الترجيح - لا شك - لمتن الكافي عند الاطمئنان من صحة النسخة .

وتلك ميزة للكافي على التهذيب بل الاستبصار لا يمكن لباحث ان ينكرها . وأبرز مثال لهذا الأمر رواية ثلاثة أشبار ونصف فقد ذكر في الكافي بعدين وكذا في الاستبصار ولكن في التهذيب أضاف بعداً ثالثاً مما يجلب الانتباه الى انه زيادة في نسخة التهذيب لأن السند واحد في الجميع[1] .

وقال الشيخ آغا بزرك : إن في مؤلفات شيخ الطائفة ميزة خاصة لا توجد فيما عداها من مؤلفات السلف ، وذلك لأنها المنبع الأول والمصدر الوحيد لمعظم مؤلفي القرون الوسطى حيث استقوا منها مادتهم وكونوا كتبهم ، ولأنها حوت خلاصة الكتب المذهبية القديمة ، وأصولها(٢) الأصحاب فقد مر عليك عند ذكر هجرة الشيخ الى النجف الأشرف ان مكتبة سابور في الكرخ كانت تحتضن الكتب القديمة الصحيحة التي هي بخطوط مؤلفيها ، وقد صارت كافة تلك الكتب طعمة للنار كما ذكرناه ، ولم تفقد بذلك - والحمد لله - سوى أعيانها الشخصية وهيأتها التركيبية الموجودة في الخارج ، وأما محتوياتها ومواردها الأصلية فهي باقية على حالها دون زيادة حرف ولا نقيصة حرف ، لوجودها في الجوامع القديمة التي جمعت فيها مواد تلك الأصول قبل تاريخ إحراق المكتبة بسنين كثيرة ، حيث ألف جمع من أعاظم العلماء كتباً متنوعة ، واستخرجوا جميع ما في كتبهم من تلك الأصول وغيرها مما كان في المكتبات الأخرى ، وتلك الكتب التي ألفت عن تلك الأصول موجودة بعينها حتى هذا اليوم ، والكثير أولئك استفادوا من تلك المكتبة وغيرها شيخ الطائفة الطوسي لأنها كانت آلت بيده وفي تصرفه ، وهو زعيم الشيعة ومقدمهم بوملئذ فلم يدع كتاباً فيها الا وعمد الى مراجعته واستخراج ما يخص مواضيعه منه .

وهناك مكتبة اخرى كانت في متناول يده ، وهي مكتبة أستاذه السيد المرتضى التي صحبه ثمان وعشرين سنة ، وكانت تشتمل على ثمانين ألف كتاب سوى ما أهدي منها الى الوزراء كما صرح به كل من ترجم له ، وذلك احد وجوه تلقيبه بالثماني .

نعم كان شيخ الطائفة متمكناً من هاتين الخزانتين العظيمتين وكان الله الهمه الأخذ بحظه منهما قبل فوات الفرصة ، فقد اقتنصها ، وغرفل كوم الكتب فاخذ منها حاجته وظفر فيها بضالته المنشودة ، والف كتابيه الجليلين (التهذيب) و(الاستبصار) اللذين هما من الكتب الأربعة ، والمنابع الحديثية التي عليها مدار استنباط الأحكام الشرعية عند الفقهاء الآتي عشرية منذ عصر مؤلفه حتى اليوم ، والف أيضاً غيرهما من مهام الأسفار قبل ان يحدث شيء مما ذكرنا ، وكذا غيره من الحجج فقد أجهدوا نفوسهم ونفدوا في حفظ تراث آل محمد عليه وعليهم السلام ، فكان لهم بحمد الله ما أرادوا .

وهكذا استقى شيخ الطائفة مادة مؤلفاته من تصانيف القدماء ، وكتب في كافة العلوم من الفقه واصوله ، والكلام والتفسير ، والحديث والرجال ، والأدعية والعبادات ، وغيرها ، وكانت ولم تزل مؤلفاته في كل علم من العلوم مأخذ علوم الدين بأنواعها يستفيدون ومنها يقتبسون وعليها يعتمدون .

على ان جماً من علماء الشيعة القدماء عملوا ما عمله ، فان الشيخين الكليني والصدوق ألفا (الكافي) و (من لا يحضره الفقيه) اللذين هما من الكتب الأربعة أيضاً ، وكذا غيرهما من الأقطاب ، وانا لا ننكر فضلهم بل نشكرهم على حسن صنيعهم ونقدر مجهودهم ونسأل الله لهم الأجر والثواب الجزيل ، إلا انه لا بد لنا من الاعتراف بان شيخ الطائفة تفرده قام بما لا تقوم به الجماعة ، وبقي يأتي بما لم يكن من [illegible] بها لولا العناية الربانية التي [illegible] الكريمة فكتب وألف قد خص [illegible] وأحاديث أهل البيت عليهم السلام

(١) الشيخ محمد رضا المظفر (٢) الأصل : عنوان يصدق على بعض كتب الحديث خاصة والأصول الأربعمائة هي : اربعمائة كتاب ألفت من جوابات الامام الصادق عليه السلام .

almawaddah.be